

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

حين دعيتي جامعة الرياض - مشكورة - في شهر مارس لسنة ١٩٧٣ لإلقاء محاضرة بها دعاني عميد كلية الآداب فيها وزملاؤه من أسانذة قسم اللغة العربية للحوار معهم ومع طلابهم في موضوع يتصل بتاريخ شعرنا العربي واخترت موضوع طوابعه الشعبية ومداهها في حقبه القديمة .

ورأيت أن أبسط هذا الموضوع في بحث يتناوله على مر العصور من القديم إلى الحديث ، حتى أصحح الرأي المخطئ الذي ذاع وشاع على ألسنة كثيرين ، والذي يزعم أصحابه أن شعراء العربية كانوا بمعزل عن شعوبهم ، فهم يتغنون بأشعارهم للطبقات العليا فيها فحسب ، معرّضين كرامتهم لغير قليل من الهوان في سبيل ما يتغنون من العيش والكسب والمكائنة لأنفسهم . وهذا - ومثله كثير - يُقال في عصرنا عن الشعر العربي ، وأنه كان تجارة مربحة تقدّم لطبقات أرسقراطية ، دون أن يفصح عن أحاسيس الشعوب العربية وما عاشته من ضنك وضيق في بعض الأزمنة . وطبيعي أن يُلقتي ذلك لإلقاء دون بحث أو ما يشبه البحث ، لسبب يسير ، وهو أن الشعر العربي عمّر قرونًا طويلاً جعلت التعرف عليه - في وضوح - شيئاً شاقاً عسيراً ، غير أن من يُنعم النظر في تاريخه الطويل ونصوصه الكثيرة منذ العصر الجاهلي سيجد شعراءه يصورون دائماً ما ألمّ بشعوبهم من أوقات رخاء ومن أوقات شدة ، مهما اختلفت الأزمان والحقب ، ومهما تفاوتت الأقطار والبلدان ، ومهما تعاقبت الأحداث والخطوب .

وواضح أننا نقصد بكلمة الطوابع الشعبية في الشعر أنه يتفصيل من قلوب شعوبه وأفئدتها في مختلف العصور ، فهو دائماً يصور حياتها وآمالها وآلامها ، سواء في عصور الابتهاج أو في عصور الابتاس . وكان هذا التصوير على أتمه في

العصرين الجاهلي والإسلامي ، إذ لم تكن هناك لغة عامية تشارك الفُصْحَى ويستظهرها العرب في حياتهم اليومية العاملة ، إنما حدثت هذه اللغة في العصور التالية ، ومع ذلك ظل الشعر الفصيح هو الذي يترجم عن مشاعر الشعوب العربية وأحاسيسها المختلفة في حين انحاز الشعر العامي - منذ ظهوره - أرجالاً وغير أرجال إلى الفكاهة والهنزل ، إزْجاءً للفراغ عند بعض المتأدبين . وتَمَلُّحاً وتظرفاً ، ومضى على ذلك إلى اليوم ، إذ نراه منتشرراً في المجالات الهزلية .

ومعنى ذلك أن الشعر العربي ظل يتمثل في وضوح حياة العرب وطوابعها الشعبية طوال عصوره ، أما في العصرين الجاهلي والإسلامي فالأمر واضح لأنه لم يكن هناك شعر سواه ، ولم يكن هناك أيضاً سوى الفُصْحَى ، وأما في العصور التالية فع ظهور اللهجات العامية والشعر العامي ظل هو الذي يتمثل في قوة تلك الحياة بطوابعها الشعبية . ويمكن أن نتخذ لذلك مقاييس - منذ العصر العباسي - تسبر أغواره ، منها مشاركته في الحياة السياسية والاجتماعية والوجدانية والدينية مشاركة خصبة ، ومنها انتماء كثير من أصحابه إلى الطبقات الدنيا في شعوبهم . ومنها سيرورته وذبوعه في الألسنة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، بحيث لم يظهر شاعر كبير في إقليم عربي إلا رَوَتْ جميع الأقاليم العربية الأخرى أشعاره ، ودارت في جميع الأفواه على نحو ما نعرف عن المتنبي . فشعره يتداوله جميع العرب في أوطانهم المختلفة ، من جيل إلى جيل ، ومن عصر إلى عصر .

وكان مما أثر آثاراً بعيدة في انتشار الشعر العربي من قديم تغنى المغنين والمغنيات به وتلحينه على الآلات الموسيقية . حتى إذا كان العصر الحديث شاركت الغناء في انتشاره المطابعُ والصحفُ واتساع التعليم والإذاعة المسموعة والمرئية ، مما جعله يزداد انتشاراً وتغلغلاً في الشعوب العربية ، وليس ذلك فحسب ، فقد اتسع تمثله لطوابع حياتها الشعبية العامة . إذ لم يعد الشعراء يقدمون منه شيئاً للطبقات الأرستقراطية ، فقد تحولوا جميعاً إلى شعوبهم ، وأخذوا يؤثرونها بما ينظّمونه ، محاولين - بكل ما وسعهم - أن يصوروا لها كل ما احتدم في نفوسها من مشاعر وطنية وقومية ودينية ووجدانية . والله وليّ الهدى والتوفيق .